الشبهة الثالثة والعشرون
اليوم أكملت لكم دينكم

الجهل، وصنوه الغباء، لهما أثر واضح فى مغالطات منكرى السنة، وقد أشرنا إلى هذا مرات فى ما تقدم وها هو ذا يتضح مرة أخرى، فى ترديدهم هذه الشبهة؛ لأننا رأيناهم يستدلون على أن السنة زيادة فى الدين وبدعة ضالة استناداً إلى هذه الآية الحكيمة: «اليوم أكملت لكم دينكم».

ووجه استدلالهم بهذه الآية على إنكار السنة وأنها بدعة وزيادة فى الدين:

أن هذه الآية نزلت فى أواخر حياة النبى ﷺ ولم يكن للسنة وجود، لأن السنة جُمعَتْ ودونت فى القرن الثالث الهجرى، فلو كان الدين وكماله متوقفا عليها ما قال الله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم**﴾ ولما كان لهذه الآية معنى على الإطلاق يوم نزلت.

ويستخدم واحد منهم هذا الغباء فى عدم الاحتياج إلى صحيحى البخارى ومسلم خاصة، فيقول:

هل كانت الأمة ضالة حتى كتب البخارى ومسلم صحيحيهما؟ جاء هذا فى مناظرة أذاعتها محطة «اوريت» الفضائية مساء الجمعة ٢/٦/١٩٩٩ م.

كما ذكرها كاتب سورى اسمه «محمد شحرور» فى كتاب له دعاه: الكتاب والقرآن، قراءة معاصرة، وعقد فصلا ضافيا عن السنة أخرجها عن منزلتها عند المسلمين وقد تقدمت الإشارة من قبل إلى هذا الكاتب والكتاب.

تفنيد هذه الشبهة ونقضها:

لا نرانا فى حاجة، إلى تطويل فى تفنيد هذه الشبهة ونقضها، فهى أخف من جناح البعوضة، ولو كان عند منكرى السنة ذرة من الفهم لآثروا السكوت على النطق بها، ولكن بغضهم لسنة الرسول الكريم أعماهم حتى عن رؤية موضع أقدامهم.

إن وجود السنة – عندهم – يبدأ بجمعها وتدوينهافقط لذلك جزموا بعدم وجودها فى القرنين الأول والثانى الهجريين، وشطر من القرن الثالث؟!

ونوجه إليهم هذا السؤال:

من أين جمع علماء الحديث السنة فى القرن الثالث؟! هل هم ابتدعوها ابتداعا من عند أنفسهم، وانتحلوها كانتحال الشعر الجاهلى حسب مزاعم المستشرقين أسيادكم؟ أم جمعوها من حفاظها ومصادرها التى سمعتها عن الرواة من أصحاب رسول الله ﷺ؟

إن قلتم ابتدعوها ابتداعا من عند أنفسهم فلا كلام لنا معكم، وإن قلتم جمعوها من صدور حفاظها الثقات قلنا لكم:

إذن السنة كان لها وجود فى حياة النبى ﷺ قبل الهجرة، وبعد الهجرة، لأن السنة هى أقواله وأفعاله وتقريراته. فهى كانت كالزرع ينمو ويتكاثر على مدى حياة من أرسله الله رحمة للعالمين.

وإذا كان هذا هو الواقع فلماذا تفرقون بين الحفظ فى الصدور، والخط فى السطور.

إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا فى الأمصار عقب وفاة صاحب الرسالة، وأحلوا بها وفى صدورهم وعلى ألسنتهم أحاديث النبى عليه السلام وسمعها منهم التابعون فى كل مصر من الأمصار التى فتحها الإسلام. وكانت هذه السنة مصابيح هدى بعد القرآن لدى المسلمين الأوائل.

ولذلك لما رأى الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز جمع السنة وتدوينها على نطاق واسع، دبت حركات الجمع فى كل الأقطار.

فى المدينة، وفى مكة، وفى البصرة، وفى الكوفة، وفى اليمن وفى خراسان، وفى واسط، وفى مصر، وفى غيرها.

وإن النهى عن كتمان العلم، والسنة من أشرف العلوم الاسلامية، كان يوحى لحفاظ السنة من الصحابة رضى الله عنهم أن يحدثوا بها الناس، ويبلغوها كما يبلغون القرآن.

ومن هذا يتبين أن السنة كان لها وجود قوى يوم نزل قوله عز وجل:
﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ وكانت هى من عناصر كمال هذا الدين الخالد العظيم.

كما كان لهذه السنة حياة، وأى حياة، فى عصر الخلفاء الراشدين الأربعة، قبل عصر عمر بن عبد العزيز بأكثر من خمسين عاما ، فكل منهم – رضى الله عنهم – كان يعمل فى حكمه وقضائه وسلوكه وفتاويه بالكتاب العزيز ، ثم بالسنة الطاهرة إذا لم يجدوا في كتاب الله نصا فيه حكم ما يعرض لهم من مشكلات .

الحفظ أمكن للوجود من التدوين :

إن أحاديث رسول الله ﷺ سهلة الحفظ لقصرها وسداد معانيها وجمال ألفاظها وبلاغة مبانيها والعرب لأنهم كانوا أميين ، كان اعتمادهم على الحفظ ملكة راسخة فيهم ، وقل منهم من كان يخلو من هذه الملكة وحفظهم للأحاديث القصار لم يكن أصعب عليهم من حفظ الأنساب ووقائع الأيام والقصائد الطوال .

والذاكرة التى استطاعت حفظ كتاب الله عز وجل – على طوله – لم يكن ليعجزها أن تحفظ عشرات الأحاديث التى سمعتها من صاحب الرسالة .

وحفظ السنة أمكن لوجودها قبل الجمع والتدوين من الجمع والتدوين .

لأن الحافظ يُحدِّث بما يحفظ أكثر وأيسر وأسرع من أن يحدث من كتاب .

والكتب لا يحملها صاحبها أين حل ، أما حفظه فى صدره فهو ملازم له ملازمة الظل للعود .

إن ضخامة الخطأ فى هذه الشبهة وترديدها لا ينازع فيه منصف ، فكفاكم يا منكرى السنة تهافتا ومكابرة ، وأعلموا أنكم لن تفلحوا أبداً فى إنكار السنة ولو شاب الغراب أو باض الديك.

* * *